« وبعـــد »

فمن أى تنبع الأخلاق ؟

تنبع الأخلاق من منبعين اثنين لا ثالث لهما : الوراثة ، والبيئة .

الوراثة

ماهى؟ أسبابها . طوائفها . قوانينها . وظائفها . ماتنقله . واجبنا نحوها

الأحاسيس الطبيعية فى الإنسان اثنان :

الأول — إحساس حفظ الذات .

الثانى — إحساس حفظ النوع .

هذان هما الإحساسان اللذان عليهما عمار الكون . فإذا كنت ترى الإنسان يجد ، ويكد ، ويشق هنا وهناك فذلك لأن يحفظ ذاته .

وإذا كنت تراه يتصدى لتكوين أسرة فيجمع إلى نفسه نفسا أخرى ، يتحمل أعباءها كما يتحمل أعباء نفسه ، ويسهر على مصالحها كما يسهر على مصالح نفسه ، فيضيف إلى متاعبه تعباً ، وإلى شقائه شقاء فذلك لأن يحفظ نوعه .

وللناس فى هذا الإحساس الثانى قيود تختلف باختلاف العصور والمجتمعات ، وهدف هذه القيود أن يُحافظ على ألا يختلط دم بدم .

ولقد لازمت هذه الظاهرة الإنسان فى تاريخه حتى الساعة ، وإن اختلفت قوة وضعفاً : قوة حين يفرضها الدين ، وضعفا نسيبا حين يفرضها العرف .

فمثلا نرى الإسلام يُحرم أن تتزوج المسلمة من غير المسلم ولو كان صاحب كتاب سماوى ، ويُحرم أن يتزوج المسلم من وثنية أو مجوسية ، وما إليهن ممن لسن من أهل الكتاب . وفى ذلك يقول كتابنا العزيز : « وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ، وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ » .

واليهودية تحرم تحريماً قاطعا الزواج بين اليهود وأهل الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين أنفسهم .

والمسيحية بمختلف نحلها تحرم كذلك الزواج بين المسيحيين وأهل الأديان الأخرى حتى اليهود والمسلمين .

ومما يلاحظ هنا أن الاسلام أكثر تسامحاً من الأديان الأخرى فبينما نراه يُجيز للرجل المسلم أن يتزوج من مسيحية ، أو يهودية نرى اليهودية والمسيحية لا تُبيح مطلقاً أن يتزوج رجلها من امرأة على غير دينه . فلا يجوز لليهودى أن يتزوج من مسيحية ، أو مسلمة ، وكذلك المسيحى لا يُبيح له دينه أن يتزوج من مسلمة ، أو يهودية .

وإذا كانت الأديان تفرض « القيود » فى سبيل حفظ النوع فإن العرف ليفرضها أيضاً .

مثلا : نرى العبريين كانوا يحرمون الزواج من الكنعانيين . بحجة أن العبريين شعب الله المختار ، وأن الكنعانيين شعب وضيع خلقه الله ليكون رقيقاً للعبريين .

وهذه العقيدة ذاتها نراها عند « اليونان » .

يقول « أرسطوطاليس » - فى كتابه السياسة - : « إنما الطبيعة وهى ترمى إلى البقاء هى التى خلقت بعض الكائنات للإمرة ، وبعضها للطاعة ، إنما هى التى أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيداً ، كما أن الطبيعة هى أيضاً التى أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجسمانية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبداً . . .

ولم ينخدع الشعراء إذ يقولون :

أجل الإغريق على المتوحش حق الأمره .

ما دام أن الطبع قد أراد أن يكون المتوحش والعبد سيين . (١)

وعلى ذلك فما كان يجوز لليونانية أن تتزوج من غير يونانى ولا يجوز لليونانى أن يتزوج زواجاً شرعياً بغير يونانية .

كذلك كان الأمر عند الرومان حتى أن الامبراطور « فالينينيان » نراه يصدر قانوناً .

يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية ، أو رومانى يرتكب هذا الجرم .

وتقرر القوانين الرومانية القديمة أن زواج الرومانى بغير رومانية يقع باطلا ، وأن الأولاد الذين يجيئون ثمرة لذلك يعتبرون أولادسفاح .

وكذلك كانت تسير العرب فى عصرها الجاهلى ، فما كان يجوز للعربية مهما كانت وضيعة أن تتزوج من أعجمى (٢) .

---

(١) ص ٩٣

(٢) الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى

ولا تزال هناك رواسب من هذه نراها الآن فى بعض « قبائل العرب » حيث يمنعون « العربية » من أن تتزوج من « فلاح » — على حد تعبيرهم — مهما كانت أسرته ، أو مهما كان مركزه .

وإذا كانت هذه النظرية تهدف إلى المحافظة على « الدم » فانك لتحار حين تراها بين الطبقات فى الشعب الواحد ، اللهم إلا إذا قلنا : إن « مايحمله الدم » هو الهدف ، على أن هذا لا يُذهب « الحيرة » أمام تقـــدير بعض الناس .

وعلى أية حال فأن مدلول « نظرية الوراثة » قد أدخله القدماء فى اعتبارهم من قبل أن يظهر العلم الحديث .

ولقد جرت سنة الله فى الأشياء أن يُشبه الفرع أصله : فالنبات ينتج له ، والحيوان ينتج حيواناً مثله ، وكذا الإنسان ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولكن ما هو السر فى أن المولود يرث صفات والديه ، وأجداده وخواصهم ؟

السر فى « الخلية الجرثومية » أى أن هذه الخلية المودعة فى بويضة الأم الملقحة بجرثومة الأب تحمل صفات وخواص الآباء ، والأجداد ، فالوراثة هى :

« انتقال بعض خصائص الأصل إلى الفرع قل ذلك أم كثر » .

والصفات ، أو الخصائص التى يرثها الجنين عن أمه ، أو عن أحد أصولها تأتى إليه عن طريق « بويضة الأم » والتى يرثها عن أبيه ، أو عن

أحد أصوله تانى إليه عن طريق اللقاح بجرثومة الأب .

وهذه الصفات ، أو الخصائص التى يرثها الفرع من أصله منها :

١ — ما ينتقل إليه من أصوله الخاصة القريبة ، أو البعيدة .

٢ — وما ينتقل إليه من فصيلته العامة .

٣ — ومنها ما هو جسمى .

٤ — وما هو عقلى .

٥ — وما هو خلقى .

وتنقسم الوراثة إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة .

فمن ناحية المؤثرات ، أو المصدر المنقول عنه تنقسم إلى قسمين :

١ — وراثة نوعية .

٢ — ووراثة خاصة .

أما النوعية فهى التى تنقل إلى الفرع الصفات الخاصة بالفصيلة التى ينتمى إليها ، فمثلا : ترى العربى ينماز بالرأس الطويل ، والوجه الضيق ، والأنف الأقنى ، وبنتوء مؤخرة الجمجمة نتوءاً شديداً ، كما ينماز بالقامة المربوعة ، والبنية المهزولة .

وترى « الأرمن » يتميزون بالانحدار الشديد فى مؤخرة الجمجمة ، وبالأنف الضخم المتقوس إلى آخر ما تراه من خلاف بين الناس فى الشمال ، وفى الجنوب ، وفى الشرق ، والغرب . سواء من الناحية الجسمية ، أو النفسية .

وأما الخاصة فهى التى تنقل إلى الفرع صفات أصله الخاصة القريبة ،

أو البعيدة . وهنا ترى الأفراد على خلاف كبير : فمنهم من يرث من أب واحد ، ومنهم من يرث من الاثنين . ومنهم من يأخذ صفات مخالفة لصفات أصليه ولكنها منتزعة منها وسط بينها ، كما إذا تزوج أسود من بيضاء فيأتى ولدها ولون شعره وبشرته وسط بين لونى شعر والديه وبشرتهما .

وتنقسم باعتبار نوع الصفات الموروثة عن الأصول إلى ثلاثة أقسام :

١ — وراثة جسمية .

٢ — « عقلية .

٣ — « خلقية .

فأنت فى الصفات الجسمية ترث من أبويك اللون ، والطول ، والقصر ، إلى آخر ما هنا لك مما ترثه من هذه الناحية .

وترث فى العقلية مظاهر الذكاء ، أو الغباوة ، وما إلى ذلك .

وفى الخليقة ترث الفضائل ، أو الرذائل : من حلم ، أو طيش ، ومن لين ، أو قسوة ، ومن تقوى ، أو فُجر إلى آخر ما هنالك فى هذا الباب أيضا .

وتستطيع أن تقول : إنها من هذه الناحية تنقسم أيضاً إلى :

١ — وراثة طبيعية أو فطرية .

٢ — وراثة اجتماعية .

فالوراثة الطبيعية أو الفطرية وراثة داخلية أى ليست شيئاً خارجا عن ذات الإنسان نفسه ، وواسطة الانتقال فيها « الخلية الجرثومية » . والقوة العاملة فيها اللقاح التناسلى ، وهذه الوراثة الفطرية توجب أن يشابه الابن أبويه وإخوته مشابهة كثيرة وبهذه الوراثة يكرر الابن الخواص الطبيعية

للسلالة فتمايز الأنواع والأصناف ، وتتفرق بعضها عن بعض .

والوراثة الاجتماعية وراثة خارجية أى أن واسطة الانتقال فيها ليست شيئا داخلا فى ذات الإنسان كالخلية الجرثومية فى الوراثة الفطرية بل شيئاً خارجا عن الذات هذا الشيء هو « الخلية الاجتماعية » وما الخلية الاجتماعية إلا العائلة — الزوج والزوجة وثالث بينهما — وإذا كانت القوة العاملة فى الوراثة الفطرية هى « اللقاح التناسلى » فأن القوة العاملة فى هذه الوراثة الاجتماعية شيء آخر هو : « العقل » بوساطة الجهاز العصبى والأعضاء العاملة هى العين والأذن ، واللسان وكل الحواس .

وإذا كنت ترى فى مفهوم الوراثة « المشابهة » أن يشابه الولد أباه فى الوراثة الفطرية ، والفرد قومه فى الوراثة الاجتماعية . فهل هى ضربة لازب ، أو يمكن التغيير ؟ .

التغيير فى الوراثتين ممكن وهو فى الفطرية عبارة عن أن يختلف المولود عن أبويه وعن إخوته . وفى الاجتماعية عبارة عن أن تختلف العادات بين الناس بعضهم مع بعض .

يروى أن رسول الله صلوات الله عليه كان إذا نظر إلى خالد بن الوليد . وعكرمة بن أبى جهل قال : « يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ » لأنهما كانا من خيار الصحابة ، وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله .

ومن كلام على بن أبى طالب لمعاوية بن أبى سفيان : أما قولك : إنا بنو عبد مناف فكذلك نحن . ولكن ليس أميةُ كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب .

وقال الشاعر :

علىٌّ وعبدُ الله بينهما أبٌ وشتّان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبدَ اللهَ يَلْحَى على الندى علياً ويلحاه علىٌّ على البخل

وإذا كانت الوراثة من وظيفتها أن تحافظ على صفات النوع ، فإن هذا التغيير من وظيفة البيئة .

خذ مثلا : خضرة النبات وراثية . فالوراثة تحافظ على أن تنتقل هذه الصفة من الأصل إلى الفرع ما دامت البيئة لم تتغير ، فإذا تغيرت البيئة فزرعت البذرة مثلا فى الظل ، أو فى الظلام نبتت النباتة صفراء ، أو قليلة الخضرة جداً لأن النور عامل من عوامل اخضرارها ، فإذا ما أعدت هذه البذرة إلى مكان يغمره النور رجعت خضراء .

وتعليل ذلك أن تغير البيئة كان عاملا لتغير اللون ، فلما زال هذا العامل عاد عامل الوراثة حراً يفعل فعله .

ومن هنا يعمل المربون على تغيير الصفات الإنسانية بتغيير العوامل البيئية العاملة فيها . ويقولون : « إن عامل الوراثة كالوتر الموسيقى ، وعامل البيئة كالموسيقى الضارب على الوتر يغير أنغامه من لحن إلى لحن .

لكن هل السنن التى تخضع الوراثة لمؤثراتها مبهمة أو معلومة مضبوطة ؟

يقول « داروين » فى كتابه أصل الأنواع [1] : « إن السنن التى تخضع الوراثة لمؤثراتها مبهمة لدينا غالباً ، ولا يتسنى لأحد أن يستجلى غامض ذلك السر الذى تورث به الصفات الخاصة فى أفراد النوع الواحد ،

---

(١) ترجمة الأستاذ اسماعيل مظهر ص ٩٤

أو الأنواع المختلفة ، فى حين ، ولا تظهر موروثة فى حين آخر . أو لماذا يرث الطفل شيئاً من صفات أبيه أو جده ، أو بعض أسلافه السابقين . أو لماذا تورث الصفة الخاصة فتنتقل من الذكر أو الأنثى إلى أعقابهما على السواء أو إلى جنس واحد منهما دون جنس أكثر من انتقالها إلى النسل الذى هو من ذات الجنس الذى تورث عنه الخاصية ذكراً كان أو أنثى ؟

وقد عنى بدراسة الوراثة والكشف عن قوانينها عدد كبير من العلماء من أشهرهم « مندل[1] » وشارل نودان[2] » و « ريبو[3] » .

---

١ — هو : يوحنا مندل المشهور فى الأوساط الكنسية باسم «جريجور» ولد بالنمسا سنة ١٣٢٢ وتوفى ببلدة « برين » سنة ١٨٨٤ ولقد اختير قسيسا لهذه البلدة التى توفى فيها سنة ١٨٤٧ ولم تشغله شئون الكنيسة عن متابعة الدرس ، والبحث . مكث سبع سنين كاملة يبحث فى الوراثة فى عالم النبات ، غير أن بحوثه لم تقابل باهتمام فى أول الأمر . ولعل ذلك كان راجعاً إلى اشتغال العلماء حينئذ بنظرية « دارون » فى أصل الانواع ، ولم يتح لبحوثه الذيوع إلا منذ السنة الأخيرة فى القرن التاسع عشر . ويرجع الفضل فى ذيوعها إلى الاستاذ « دوفريس » أحد علماء النبات الهولنديين . وقد اهتدى مندل إلى معظم قوانينه بفضل ماقام به من التجارب على النباتات ، وبخاصة على زهرة البسلة .

٢ — من أشهر علماء النبات الفرنسيين : ولد بأوتان سنة ١٨١٥ وتوفى بأنتيب سنة ١٨٩٩ حصل على دكتوراه فى العلوم سنة ١٨٤٢ وعين عضواً بأكاديمية العلوم سنة ١٨٦٣ وقد وقف قسطاً كبيراً من نشاطه العلمى على دراسة الظواهر للوراثية فى النبات .

٣ — فرنسى من أشهر فلاسفة الغرب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومن أكبرهم فضلا على علم النفس ، ولد فى سنة ١٨٣٩ وتوفى =

ولقد وجه « ريبو » معظم عنايته إلى دراسة الوراثة النفسية ، وقوانينها فتناول وراثة الغرائز ، والإدراك الحسى ، والذاكرة والعادة ، والذكاء ، والميول ، والإرادة ، والأمراض النفسية . ثم استخلص طائفة من القوانين التى تخضع لها الوراثة ، وخاصة فى الناحية النفسية .

ومن القوانين التى توصل إليها الباحثون فى الوراثة :

١ — قانون الوراثة المتحدة الأزمنة : ومعناه أن الأصل قد يظهر عنده فى مرحلة ما من مراحل حياته صفة عارضة جسمية ، أو نفسية ، ثم تظهر هذه الصفة نفسها عند الفرع حينما يبلغ السن التى ظهرت فيها عند أصله .

روى « دارون » أن شخصاً قد أصيب بالعمى لسبب غير معلوم وسنه سبع عشرة سنة ، فأصيب به سبعة وثلاثون فرداً من أولاده ، وأحفاده فى السن نفسها التى أصيب فيها به .

وروى « سيدوك » أن رجلا قد أصيب خنصره بانحناء نحو باطن الكف بدون أن يكون لذلك سبب معروف ، وأن هذه الظاهرة نفسها

= سنة ١٩١٦ أنشأ فى ١٨٧٦ المجلة الفلسفية التى أصبحت بفضله من أشهر مجلات أوربا ، وأكثرها ذيوعا ، وأكبرها قيمة فى مختلف فروع الفلسفة . عين فى سنة ١٨٨٥ أستاذاً لعلم النفس التجريبى « بجامعة السربون » وفى سنة ١٨٨٩ ، انتخب عضواً « بأكاديمية العلوم الخلقية والسياسية » بباريس ، وهى إحدى الأكاديميات الخمس التى ينتظمها المجمع العلمى الفرنسى . وقد كتب فى علم النفس وحده عشرين مؤلفا . وكتب فى غيره من فروع الفلسفة عدة مؤلفات وترجم الكثير من مشاهير الفلاسفة . هذا إلى بحوثه العديدة فى مختلف المجلات .

قد بدت عند ولديه فى السن نفسها التى بدت فيها عنده .

وروى « سكيرول » أن أسرة قد أصيب جميع أفرادها بالجنون فى سن الأربعين .

« وقرر لوكاس » أن بعض الأمراض المخية كداء « النفطة » و « الصرع » تنتقل عن طريق الوراثة إلى الفروع ، وتظهر لديهم فى السن نفسها التى ظهرت فيها عند أصولهم .

ومن هذا النوع ظاهرة انتقال الصلع بطريق الوراثة فى الأسرات .

وليست الوراثة المتحدة الأزمنة مقصورة على الأمراض والعاهات ، بل تظهر كذلك فى كثير من الصفات كظهور الأسنان فى سن معينة ، وكظهور غريزة حب التكوين والتخريب فى السنة الثانية ، وهكذا ظهور كل غريزة من الغرائز فى إبانها المعروف .

٢ — ومنها قانون الوراثة الخاصة المباشرة : ومعناه أن الطفل يرث عن أصلية المباشرين « أبيه وأمه » .

٣ — وقانون الوراثة الخاصة غير المباشرة : ومعناه أن ترث عن أحد أجدادك أو إحدى جداتك من جهة الأب ، أو من جهة الأم من الدرجة الأولى أو من الدرجات التى تليها من صفات لم تظهر فى أحد أبويك ، وإنما كانت مستكنة قابلة للانتقال ، وهذه ترجع فى الحقيقة إلى الوراثة الخاصة المباشرة ، فأنت لم ترث من جدك ، وإنما ورثت من أصلك المباشر الذى خلقت من مائه على معنى أن هذه الصفة التى لم تظهر فى الأصل المباشر كانت موجودة لديه فى صورة مستكنة .

٤ ــ قانون التغلب فى الصفات الموروثة : ومعناه أنه قد تتغلب صفة أحد أبويك على صفات الأب الآخر ، فتستكن الصفات المغلوبة ، وتختفى مظاهرها ، حتى ليخيل إليك عدم وجودها ، مع أنها تكون فى هذه الحال موجودة بالقوة ، وآية وجودها بالقوة أنها قد توجد فى الفرع بالفعل .

٥ ــ قانون وراثة الحالات العارضة وقت العُلوق : ومعناه أن كثيراً من الحالات العارضة المؤقتة التى تلابس الآب أو الأم وقت العُلوق، أى أثناء عملية التلقيح تنتقل إلى الجنين كما تنتقل إليه الصفات الثابتة المستقرة فى أبويه .

فيكاد يجمع المشتغلون ببحوث الوراثة على أن الجنين الذى يتكون فى حال نشوة أبيه أو أمه ينشأ غالباً مصاباً بالبله ، أو الذهول الدائم ، أو الصرع ، أو ضعف الحواس ، أو الجنون . ذلك لأن هذه الحال تؤثر فى المادة الأولية التى يتكون منها الجنين .

ويقول الدكتور « أوجست فوريل » أستاذ الأمراض العقلية ومدير مستشفى المجاذيب بزوريخ « سويسرا » : « إن الخمر تؤثر تأثيراً مباشراً فى الإقلال من النسل ، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة فى الروسيا بمقارنة الذين يتعاطون الخمر ، والذين يحرمونها إذ نرى أن الآخرين أكثر إنسالا من الأولين وقد أثبتت إحصائيات الدكتور « بيزولا » أن تعاطى الخمر مرة واحدة قد يكون له آثار سيئة على النسل . ولهذا السبب ولغيره نستطيع أن نقدر الآثار السيئة التى قد تنتج عن أداء « العملية الجنسية » تحت تأثير الخمر [1]

ويروى الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه : « الوراثة والبيئة »

---

(١) المسألة الجنسية للدكتور « أوجست فوريل » ح ٢ ص ٦١

أن الأساتذة : « ديهو » و « فوجيه » أثبتوا فى تقريرهم الذى قدموه إلى « أكاديمية العلوم » بباريس : « إن الجنين الذى يتكون فى حالة يكون فيها أحد أصليه فاقداً وعيه بخمر ، أو مخدر ينشأ فى الغالب أبله ، أو ضعيف القوى العقلية ، أو مجنوناً ، أو مصاباً بالصرع ، وأيدوا حكمهم هذا بإحصائيات دقيقة واضحة هدتهم إليها ملاحظاتهم وتجاربهم .

وليس هذا النوع من التأثير مقصورا على حالات السكر ، بل يتحقق فى كثير من الحالات الأخرى التى يكون أحد الأبوين متلبساً بها فى أثناء العلوق ولا أدل على ذلك من حادثة غريبة رواها العلامة « لوكاس » عن امرأة كان بينها وبين طبيب أسرتها علاقات غير شريفة ، فقد حدث مرة فى أثناء اتصالها الآثم بعشيقها أن خشيت مباغتة زوجها وهما على هذه الحال فعراها رعب شديد ظل جسمها ينتفض من جرائه طول مدة المقاربة ، وقد جاءت من هذا السفاح بينت نشأت منذ ولادتها مصابة بهزة دائمة شاملة لجميع أجزاء جسمها .

ومن هنا تدرك الحكمة فى تحريم الإسلام للخمر : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (١) .

---

(١) المائدة « سورة ٥٠٠ » آية ٩٠ ، ٩١

٦ ــ قانون مصدر الصفات الموروثة : ومعناه أن مجموع الصفات التى تنتقل إلى الفرع من أصله توزع على النحو الآتى :

ا ــ النصف من الصفات الظاهرة أى غير المستكنة فى أصليه المباشرين .

ب ــ الربع من الصفات الظاهرة فى أجداده من الدرجة الأولى .

حـ ــ الثمن من الصفات الظاهرة فى أجداده من الدرجة الثانية .

ء ــ جزء من ستة عشر جزءا منها من الصفات الظاهرة فى أجداده من الدرجة الثالثة ... وهكذا .

وهذا القانون تقريبى . ومنه ترى أن الجزء الأكبر يرثه الإنسان من أبويه المباشرين .

٧ ــ قانون وراثة الصفات الخارجة عن المعتاد : ومعناه أنه إذا كان فى الأصل المباشر صفة خارجة عن المعتاد رفعة اوضعه ، وانتقلت إلى فرعه ، فإنها تنتقل إليه غالباً بحال أقرب إلى المعتاد .

فإذا كنت طويلا طولا خارجاً عن المعتاد ، أو قصيراً قصراً فاحشاً ، أو ذكياً ذكاء حاداً ، أو غبيا غباوة بالغة ينشأ ابنك غالبا قريباً إلى المعتاد فى هذه الصفات .

والسبب فى ذلك أنك قد عرفت سابقاً أن الفرع لا يرث كل شىء من أبويه المباشرين ، بل يأخذ منهما ومن أجداده .

٨ ــ قانون الوراثة فى الصفات العقليه والخلقية : ومعناه أنك لا ترث الصفات العقلية والخلقية مباشرة ، وإنما ترثها عن طريق أن ترث مصدرها أولا ، ثم تأتى هى . أى أن الوراثة العقلية والخلقية ليست

إلا مظهراً من مظاهر الوراثة الجسمية ، أو نتيجة لازمة لها .

ومعظم هذه الصفات العقلية والخلقية يتأخر نضجها ووضوحها إلى دور البلوغ أى أن جرثومة هذه الصفات توجد فى الجنين منذ نشأته ، وتبدو بوادرها بعيد الولادة . ولا يكمل نضجها إلا فى دور البلوغ [1]

هل تورث الصفات المكتسبة ؟

ترى بعض الناس يكتسبون قوة جسمية ، أو عقلية ، أو خلقية بفضل مجهودهم الفردى ، أو على العكس من ذلك يصابون فتضعف قوة من هذه القوى . فهل تورث هذه الصفات المكتسبة كما تورث الصفات الفطرية أو أنها صفات عارضة غير قابلة للانتقال وراثيا ؟

خلاف فى هذه المسألة :

أما جماعة الارتقائيين كدارون ، وهيجل [2] ، وسبنسر ، ولا مارك [3]

---

(١) الوراثة والبيئة للدكتور على عبد الواحد وافى .

(٢) هو : جورج وليام فردريك هيجل فيلسوف جرمانى - ١٧٧٠ - ١٨٣١ - كان من الفلاسفة المثاليين ، وكان حامل لواء الفلسفة فى عصره فى المانيا .

(٣) من أشهر من أنجبتهم الأمة الفرنسية . وأضخمها مجدا . ولد فى أغسطس سنة ١٩٤٤ وتوفى فى دبسمبر سنة ١٨٢٩ . ودخل فى أوائل أيامه الكنيسة ، وقفل فيها إلى خدمة الجيش ، فصار كاتباً فى إحدى البيوتات المالية ، وأكب فى أول عهده على دراسة الظواهر الجوية ، ثم رغب عنه إلى علم النبات وألف فى نباتات فرنسا كتابا فى ثلاث مجلدات ، ثم انتخب رئيساً لجماعة المباحث النباتية الملكية وبعد أن قضى من علم النبات مأربه أكب على دراسة علم الحيوان ، ثم عين أستاذاً لتدريس =

ومن تابعهم فيقولون : إنها تورث ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة منها :

١ — إن سواد البشرة فى سكان المناطق الحارة لم يكن طبيعياً فى أصولهم ، وإنما اكتسبوه اكتساباً تحت تأثير البيئة الطبيعية وأصبح على توالى الأيام والزمن صبغة وراثية يأخذها الفرع عن الأصل

٢ — جرت عادة الأسكيمو - سكان المناطق الشمالية فى أمريكا - أن يقطعوا أذناب كلابهم التى يعدونها لجر عرباتهم على الثلج ، وقد لوحظ أن معظم أولاد هذه الطائفة من الكلاب تولد بدون أذناب [١] .

٣ — لاحظ « دارون »[٢] أن عظم جناح البط الأهلى أقل من عظم الساق زنة ، وذلك بعكس ماللبط الوحشى فى هذه الأعضاء ذاتها يقول : ويمكن أن نعزو هذا التغاير إلى أن متوسط طيران البط الأهلى يقل كثيراً

= «تاريخ الحيوانات الدنيا الطبيعى» وله كتاب «تاريخ ذوات القفار الطبيعى» فى سبعة مجلدات ضخام وهو من أشهر كتبه وله كتاب « فلسفة الحيوان » فى ثمانية مجلدات . ويعتبر هذا الكتاب حدا فاصلا بين عهدين علميين . عهد القول بالخلق المستقيم ، وعهد القول بالنشوء على مايقوله مؤرخو الألمان ، إذ يقولون بأن مذهب النشوء تم بناؤه فى مائة عام ، بدأها العلامة « كاسبار فردريك » و « ولف » وتوسطها « لامارك » هذا بكتابه « فلسفة الحيوان » وأتمها العلامة : « دارون » بكتابه أصل الأنواع . ومن أقوال « لامارك » هذا : « الجهاز العصبى مولد الأفكار وكل أعمال العقل » : « الأرادة غير حرة » : « النباتات والحيوانات لا فرق بينها إلا بالحسن » .

(١) المصدر السابق .

(٢) فى كتابه أصل الأنواع ترجمة الاستاذ اسماعيل مظهر ص ٩١

عن متوسط مشيه ، على العكس مما فى طبيعة أصوله التى لا تزال فى حالتها الوحشية الأولى .

ويرى « ويزمان » (١) ومن تابعه أن الصفات المكتسبة غير قابلة للانتقال وراثيا ، ويستدلون على ذلك بأدلة منها :

١ — عادة الختان منتشرة عند العرب واليهود من زمن مديد ومع ذلك يولدون غير مختونين .

٢ — يلبس الصينيات أحذية حديدية لتصغير أقدامهن منذ عصر سحيق ومع ذلك لم تصغر أقدامهم بطريق الوراثة .

٣ — نرى عادة الوشم منتشرة عند بعض القبائل ومع ذلك لم ترها تنتقل من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة .

٤ — نتعلم القراءة والكتابة من آلاف السنين ومع ذلك فلم تر من يولد يقرأ ويكتب ، ولعل الزمن يحقق لنا هذه الوراثة فيريح الأبناء مما يلاقونه من نصب فى سبيل الأمية .

والحق فى هذه المسألة أن الصفات المكتسبة تورث إذا أثرت فى الجهاز العصبى أو بعبارة أخرى فى المادة الجرثومية ، وأحدثت بها تغييرا ، أما إذا لم تؤثر فيها فلا تورث .

ومنها ما هو قابل للوراثة ، ومنها ما هو غير قابل .

فالصفات التى لا تقبل الانتقال : الختان ، والوشم وثقب الأذن .

ومن التى تنتقل : لون البشرة الذى يكتسبه الفرد بفعل البيئة الطبيعية ،

---

(١) عالم ألمانى ١٨٣٤ — ١٩١٤

وبعض حالات الجنون ، والشلل إلى آخر ما يورث مما هو مشاهد فى هذه الناحية .

ويترتب على هذا الخلاف فى توريث الصفات المكتسبة تحديد وظيفة الوراثة . فما هى ؟

من يقول : بأن الصفات المكتسبة لا تورث ، فوظيفة الوراثة عنده هى « مجرد المحافظة على القديم » .

فالوراثة إذن . هى التى تُقدر مصيرك ، وهى التى ترسم مستقبلك من الناحية الجسمية ، والعقلية ، والخلقية : فطباعك موروثة ، وميولك موروثة ، وغرائزك موروثة ، وانفعالاتك ، وعواطفك ، وسائر قواك العقلية ، ونزعاتك الفردية ، والاجتماعية كل ذلك موروث ، ولا حيلة لك فيه .

فالإنسان الفاضل هو الذى أتاه « السعد » فولد فى محيط طيب ، وفيه وراثات حسنة .

والإنسان الخاسر هو الذى هبط عليه « النحس » فولد فى بيئة سوء حاملا وراثات سوء .

وهنا يأتى هذا السؤال : « أى فضل للأول . وأى ذنب للآخر ؟!!! هل خيروا ذلك الأول فاختار أن يكون ابن ذلك الرجل الطيب ؟!!! وهل خيروا هذا الثانى فاختار أن يكون ابن ذلك النحس الشرير ؟!!!

من القواعد المقررة : « أنه لا واجب على من ليس بحُر » وما دمنا مقيدين بوراثة لا يدلنا فى الخروج عنها فماذا يتبقى لنا من « فكرة الواجب »

فى نظر هذه الفلسفة الطبيعية التى تعلل أعمال الناس بالوراثات ؟ !!!

الحق أن هذا الرأى ، أو هذه الفلسفة تكاد تقضى على اهتمامنا بالأخلاق .

أنت إذا كنت تعتقد أن كيفية سلوكك تتوقف إلى حَد مَّا على مشيئتك. فمن الطبيعى أن تسائل نفسك. ماذا ينبغى أن تفعل ، وماذا ينبغى أن تترك ؟

أما إذا كنت تعتقد أنه قد سبق عليك قضاء وراثى بأن يكون سلوكك على نحو مُعين ، فلا معنى إذن . لأن تسائل نفسك . ماذا تفعل ، وماذا تترك ؟

إنه لا يتوقف عليك أن تكون صالحاً أو طالحا ، خيرا أو شراً ، سعيداً أو شقياً ، وإنما يتوقف ذلك على شىء ليس لك فيه إرادة وليس لك فيه اختيار . بل هو حتم موروث .

وهنا يتهكم أبو العلاء فيقول :

المجبرون يناظرون بباطل ... فاسمع مقالهُم بغير بيان

كلٌّ يقول : أرى الإلـه أضلنى ... وأراد بى ما كان عنه نهانى

إن كان ذا فتعوذا من ربكم ... ودعوا تعوذكم من الشيطان [1]

وإذا كان أبو العلاء « يتندر » بمثل هذا القول فإنه ليس من العقل فى شىء أن تُقيد يَدىْ إنسان ورجليه ثم تقول له : « انهض واجرِ » .

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء جمع وتحقيق لجنة من رجال وزارة المعارف باشراف الدكتور طه حسين مطبعة دار الكتب المصرية .

« ثم يقول « آندره كريسون » — فى كتابه المذاهب الفلسفية [1] — :
إن الفلسفة الطبيعية — أى هذه التى ترد كل شيء إلى الوراثة — لا تبقى للأخلاق على قيمة ، ولا على سلطة ، ولا على معنى . فأسئلة الأخلاق فى نظرها عبث ، ومواعظها هزل ، وأحكامها ، ومواثيقها أجدر بالصبيان . لا قاعدة فى الحياة تقبل البرهان فى فلسفة كهذه ، إنما نحن كما نحن ، فلا مبرر لعدل ، ولا لخير .

وليت شعرى ما عسى ان يحصل حين يدرك جميع الناس هذه الحقائق ؟
أى مجتمع بشرى يستطيع إذ ذاك أن يحتفظ بتوازنه ؟
وإن « كريسون » ليقدم لهذه النتيجة بقوله :

لأجل أن ينشرح صدرنا لفلسفة من الفلسفات لابد أن تتوفر لنا هذه الأسباب التى تحمل على العيش ، وتدعو للحرص عليها ، لا بد لها أن تعلمنا كيف يجب أن نسلك سبيلنا فى الحياة .

لا بد أن يكون من شأنها أن تدل الناس على العدالة وأن تدلهم على الخير اللذين هما من شرائط الحياة الاجتماعية . لابد أن تكفل لنا قيمة المبادىء التى تعتمد عليها فإذا فقدت فلسفة من الفلسفات هذه المزايا ، فقد تكون صحيحة تقتضى أن نطأطىء الرأس أمامها ، ولكنها لن تكون إلا ثقيلة الوطأة مجردة عن الإنسانية . وعلينا قبل أن نتقبلها أن نرجع البصر فيها مرات ومرات ، وأن نقلبها على وجوهها ، حتى إذا ما أثار تمحيصنا لها

---

(١) ص ١٠٩ ، ١١٠ « ترجمة الدكتور حكمت هاشم أستاذ الفلسفة العامة بكلية آداب سوريا » .

شيئاً من الريب . كان من حقنا ومن واجبنا أن نطرح اعتناقها ، وأن نأبى التسليم بها .

ثم يقول :

فلننظر ، على ضوء هذه المبادىء فى الفلسفة الطبيعية ، إنها لتبدوا لنا من بين جميع الفلسفات التى تصوَّرها البشر أحطها أخلاقية ، وأجحدها لقيمة العلم ، وأدناها إثارة للعزم والنشاط .

أحطها أخلاقية ، لأن أحكامنا الأخلاقية إنما تعتمد على فكرة قيمة الأفراد ، وعدم قيمتهم الأخلاقية ، فنحن لا نحترم بعض الناس إلا لأنهم فى نظرنا ذوو قيمة أخلاقية ، ونحن لا نحتقر بعضهم الآخر إلا لأنهم غير ذوى قدر أخلاقى ، فنحن نشعر أن علينا فعل كل شيء من أجل أن نكتسب تلك القيمة الأخلاقية ، أو على الأقل من أجل ألا نفقدها .

ولكن ما هى مكانة هذه القيمة الأخلاقية فى الفلسفة الطبيعية ؟

الجواب المحتم : لا شيء .

لماذا ؟

لأن أعمل الناس كلهم تعلل فى تحليلات الفلسفة الطبيعية بالوراثات وبالمحيط ، فلا فضل لك فى شيء ، ولا ذنب لك فى شيء ، لأن الكل موروث وموروث .

وقبل أن أنتقل إلى الرأى الثانى الذى يخالف هذا الرأى ويعتقد أنك مدين بأهم صفاتك إلى التربية المكتسبة أقول : (إن على رأس هذا الفريق

الذى يُرجع كل شيء إلى الوراثة « سبنسر »[1] و « أوجست كمت »[2] و « شوبنهور »[3] و « جولتون » و « فونتيل »[4].

وأما « جان جاك رسو »[5] و « جون لوك »[6] و « آدم سميث »[7] و « هيلفيتيوس » و « ستوارت ميل »[8] و « ديلاج » فعلى رأس من يخالف

---

١ — هربرت سبنسر : فيلسوف انجليزى ١٨٢٠ — ١٩٠٣ حاول أن يضع العلوم كلها فى نظام عام . وكانت فلسفة مؤسسه على مذهب النشوء . رقى الأبحاث الأخلاقية والإجتماعية والتربية ، وألف كتباً كثيرة مفيدة فى النفس ، والأخلاق ، والاجتماع ، والتربية ؛ والسياسة ، ويعد من أقطاب العلم الحديث .

٢ — أوجست كت : فيلسوف فرنسى ١٧٩٨ — ١٨٥٧ مؤسس الفلسفة الوضعية وهذا النوع من الفلسفة يرى ضرورة تنظيم معلومات الإنسان عن العالم وعن الإنسان وعن الجمعية وجعلها كلها مجموعا يلائم بعضه بعضاً ؛ وأنه لا يصح تأسيس علم ما إلا على المشاهدات الخارجية ، وله اليد الطولى على علم الاجتماع ، وكان غرضه فى الحياة أن يكون مصلحا للفكر ليصلح العمل .

٣ — انظر حاشية ص ٥٠ .

٤ — كاتم سر المجمع العلمى الفرنسى عمر طويلا : فقد عاش مائة عام تماما من سنة ١٦٥٧ — ١٧٥٧ ، وهو قريب الكاتب المسرحى الشهير « كورنى » بسط العلوم بحيث جعلها فى متناول إيدى متوسطي الإدراك .

٥ — جان جاك رسو : كاتب وفيلسوف فرنسى ١٧١٢ — ١٧٧٨ م ربى فى أول أمره تربيه خامله ، ولم يكن له من المال ما يكفيه ، ووظف كاتباً عند أحد أصحاب الأملاك ، ثم ظهر نبوغه فى الكتابة والتفكير فانقطع إليهما وألف جملة =

ذلك الرأى الأول، ويقرر أن الصفات المكتسبة تورث ، وأن أثر الوراثة فى الإنسان ليس شيئاً مذكوراً بجانب أثر البيئة ، بل لقد بالغ أفراد هذا الفريق فذهب إلى أنك تستطيع أن تتغلب على جميع آثار الوراثة حتى ما يتصل منها بنوع الحيوان وتكوينه الجسمى ، وأشكال أعضائه، وأجهزته،

= كتب مفيدة أشهرها: «أميل» فى التربية رأى فيه أن التربية الصحيحة إنما تكون بترك الولد للطبيعة تربيه وله كتاب « الاعتراف » ذكر فيه تاريخ حياته ، وله مبادىء فى السياسة والآداب ساميه كانت من عوامل الثورة الفرنسيه .

٦ — جون لوك : فيلسوف انجليزى ١٦٣٢ ١٧٠٤ م كان متأثرا بتعاليم ديكارت وكانت أبحاثه الفلسفية متضمنة لا هوتا ، وسياسة ، واقتصاداً ، وتربية ، ألف رسالة سماها « العقل البشري » كان يرى فيها أن العقل يجب أن يترك حراً ليتقد أى شىء ، ويجب الا يوضع له أى حد بواسطة أية سلطة . وكان يرى أن مصدر معلوماتنا إنما هو التجربة ، وبحث فى سلطة الحكومة ، ورأى ضرورة تنازل الناس عن بعض حريتهم للسلطة العامة ، وعلى الملك المحافظة على حقوق الناس ، فإذا لم يحافظ فلا حق له فى الملك .

٧ — آدم سمث : فيلسوف انجليزى ٧٧٣٣ — ١٧٩٠ م كان أستاذ المنطق والأخلاق فى جامعة غلاسكو ، ويعد واضع علم الاقتصاد السياسى . وجه الأنظار إلى البحث فى حرية التجارة ، والعمل ، ورأس المال بحثاً علميا .

٨ — ابن المؤرخ والعالم الاقتصادى الوطنى والقومى الكبير « فيل » وهو « اسكوتلاندى » الأصل . ادخل التجارب فى العلوم . وله كتب فى المنطق الفطرى ، والاستنتاجى . صاحب كتاب التربية من سنة ١٨٠٦ — ١٨٧٣ .

وأوضاعها : فمن المستطاع فى نظر هؤلاء تحويل الأنواع الحيوانية واستبدال بعضها ببعض بأحداث بعض تغييرات فى البيئة .

بل يذهب بعضهم إلى أبعد من هذا كله فينكر أثر الوراثة ، ويعتقد أن الناس كلهم يكادون يكونون سواسية بحسب الفطرة ، وأن الفروق التى تشاهد لديهم فى الصفات الحسمية ، والعقلية ، والخلقية ، ليست فى واقع الأمر إلا نتيجة لما يكتنفهم من ظروف بيئتهم ، وما أخذوا به من تربية مقصودة ، ويصدق هذا فى نظرهم حتى على الأمور التى وقر فى أذهان الناس أنها وراثية خالصة كلون البشرة ، وطول القامة ، أو أقصرها إلى غير ذلك .

فلون البشرة الإنسانية مثلا يرجع سببه إلى مناخ البيئة ودرجة حرارتها .

وطول القامة أو قصرها ، يتوقف على نوع الطعام وكميته ، وما يكتنف الكائن من ظروف ، ويعتوره من أحـــوال خارجة تعوق نموه ، أو تذلل وسائله .

ونوع الجنين « كونه ذكراً ، أو أنثى » يتحدد بطعام الأم ، ودرجة حرارة الرحم ، ومؤثرات أخرى عارضة .

ويقول « ديكارت »[1] : « إن العقل موزع بين الناس بالتساوى ،

---

(١) فيلسوف فرنسى يعد مؤسس الفلسفة الحديثة — ١٥٩٦ — ١٦٥٠ — لم يقنع بالأدب فاشتغل بالفلسفة ولم يرض عن فلسفة « أرسطو » التى كانت شائعة فى عصره ، والتى كانت تؤخذ قضايا مسلمة من غير بحث فجاء ديكارت ووضع مبادىء جديدة أهمها .

وأن قوة الإصابة فى الحكم ، وتمييز الحق من الباطل تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وأن اختلافنا فى آرائنا لا ينشأ من أن بعضنا أعقل بفطرته من بعض ، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا طرائق قددا » .

و « جون لوك » يشبه عقل الطفل بصحيفة بيضاء ينقش عليها المربى ما يشاء .

ويقول « ديلاج » إن الطفل إذا أشبه والديه أو أحدهما فى الصفات العقلية والخلقية ، فأن ذلك لا يرجع إلى الوراثة ، وإنما يرجع إلى اتحاد ما أحاط بهما من بيئة واكتنفهما من ظروف ، وأثر فى حياتهما من شئون خارجة عن تكوينهما الأصلى .

ويروون أمثلة واقعية عن « أولاد الذئاب » تُرى مبلغ ما للتربية المكتسبة من أثر نسوق شيئاً منها .

فى بعض المقاطعات الشمالية الغربية من بلاد الهند غابات تأوى إليها

= (ا) عدم التسليم بشىء مالم يفحصه العقل ، ويتحقق من وجوده ، فما كان مبنيا على الحدس والتخمين ، وما كان منشؤه العرف والعادة يجب أن يرفض .

(ب) يبتدأ فى البحث بأبسط الأشياء وأسهلها ، ثم يتوصل منها إلى ما هو أكثر تركباً وأغمض فهما حتى نصل إلى المقصود ، ولا يحكم بصحة مقدمة حتى يتحقق منها بالإمتحان . وكان يؤمن بالله وبخلود الروح ، وقد أثارت تعاليمه رجال الدين فى عصره فحاربوه .

الذئاب ، وهذه الذئاب تغير على سكان القرى المجاورة ، فتخطف أولادهم ، وتفترس معظمهم ، ولكنها تُبقى أحيانا على بعضهم ، وتقوم بحضانتهم كما تقوم بحضانة أولادها تحت تأثير بعض العوامل النفسية ، والجسمية ، والإفرازية ، وقد عثر على بعض هؤلاء الأولاد فى الكهوف ، والغابات ، وردوا إلى بيئاتهم الإنسانية الأولى بعد أن قضوا أمداً طويلا بين الذئاب . وقد لوحظ أنهم أصبحوا مشبهين للذئاب فى معظم صفاتهم ، ومجردين من أهم صفات فصيلتهم الأولى ، وأنه قد أصبح من العسير أخذهم بأعمال الإنسان ، وعاداته فكانوا يسلكون مسلك الذئاب ، ويربضون ربضتها ، ويعوون عواءها ، ويقطعون ما يقدم لهم من غذاء بالطريقة نفسها التى يعالج بها الذئاب غذاءها ، ويمزقون ملابسهم ، ويميلون إلى العزلة ، ويؤثرون الالتجاء إلى الأماكن المظلمة ، ولقد بذلت جهود كثيرة لأخذهم بالعادات الإنسانية ، وتعليمهم الكلام ، ولكن معظم هـــذه الجهود ذهبت أدراج الرياح .

وقد عنى الأستاذ « فلانتين بول » بملاحظة ولد من هؤلاء اشتهر باسم « سينينخار » — كان قد عثر عليه بعض الهنود فى كهف فحملوه إلى أحد ملاجىء الأيتام فى ٤ فبراير سنة ١٨٦٧ وسجل فى كتابه : « الحياة فى أدغال الهند » ما لاحظه بصدد هذا المخلوق فى العبارات الآتية : ننقلها عن الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « الوراثة والبيئة » .

يقول : كانت تبدو عليه أمارات العته كانخفاض الجبهة ، والقلق ، واضطراب الحركات ، وكان تعبيره عن انفعال الغضب يتمثل فى التكشير

عن الأنياب كما يفعل الحيوان المفترس . وكان يعتمد فى تعرف الأشياء على حاسة الشم أكثر مما يعتمد على غيرها كما تفعل فصيلة الذئاب . وكان من المتعذر بدون رقابة شديدة مستمرة أن يتابع عملا واحداً مدة طويلة ويحصر فيه انتباهه . فكان إذا كلف حمل سلة مثلا ظل يحملها ما دام يحس ضغط المراقبة ، فإذا ضعفت المراقبة أو زالت أسقط السلة من يده . وكان طول ذراعه نحو ٧٤ سنتيمتراً ، أى يكاد يكون مساوياً لطول رجليه كما هو شأن الحيوانات التى تمشى على أربع . وقد ظل بعد العثور عليه يمشى على أربع كما كان يفعل من قبل ، ثم عُود المشى على رجلين . ولكن هذه العادة الجديدة لم ترسخ لديه إلا بعد بضعة أشهر . وكان إذا مشى يقف وقفات فجائية ، ويسير سير المتعثر ، وكان لا ينفك يحرك رأسه حركات سريعة يمنة ويسرة ، ويحدق بنظره كمن يترقب هجوماً ويتهيأ لاتقائه وقد ظلت هذه حاله حتى قضى نحبه .

وعلى هذا ـ أى على رأى من يقول بأن الصفات المكتسبة تورث ـ فوظيفة الوراثة أن تقوم فى آن واحد بوظيفتين اثنتين :

١ ــ المحافظة على القديم إلى حد ما .

٢ ــ العمل على تغيير هذا القديم .

يعنى ــ هذا الأخير ــ أن الوراثة تزود الفرع منذ الولادة بصفات لم يولد الأصل مزوداً بها ، ولم تكن فطرية فيه ، وإنما سلحته بها البيئة .

« وبعد » فإن الذى يقول : إن الأثر كل الأثر للوراثة مخطىء ، والذى يقول : إن الأثر كل الأثر للتربية مخطىء والذى عليه الرأى الصحيح

أن لكل من الوراثة ، والتربية المكتسبة أثراً كبيراً فى نشأة الطفل ، وتطوره من الناحية الجسمية ، والعقلية والخلقية . فأنت لست مديناً فى تكوينك للوراثة وحدها ، ولا للتربية وحدها ، بل أنت مدين بذلك لهما معاً .

وهذا هو ما أقره « المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية » فى دورته المنعقدة فى « بروكسل » سنة ١٩٣٥ وقد شهد هذا المؤتمر، واشترك فى بحوثه ممثلون لأربعين دولة، وبلغ عدد أعضائه نحو ٥٠٠ من كبار الباحثين العالميين فى هذه الشئون . ونذكر فيما يلى أهم قرارات هذا المؤتمر التى تتعلق بهذا الموضوع نقلا عن الدكتور على عبد الواحد . وافى أيضاً .

١ — ليست الطباع الإنسانية من الأمور الثابتة الجامدة غير القابلة للتحول والتغير . لأن عليها يعتمد النشاط النفسىّ الذى يواجه به الفرد مختلف الحالات التى تصادفه فى حياته . وأمرٌ هذا شأنه لا يمكن أن يظل ثابتاً على حال واحدة ؛ فوظيفته نفسها تكسبه المرونة ، وتجعله قابلا لأن يتغير تغيراً سريعاً أو بطيئاً ، فجائياً أو تدريجياً .

٢ — ترتكز حياة الفرد الإنسانى على ارتباط مظهرى الجسم والنفس أحدهما بالآخر . ولهذا كان للأمور المتعلقة بالتكوين الجسمى الظاهرى وللأمور المتعلقة بوظائف الأعضاء أثر كبير فى الظواهر النفسية . ويبدو هذا الأثر واضحاً فى الحالات النفسية التي تنجم عن تكوين جسمى خاص منقول عن طريق الوراثة ، وفى الحالات النفسية التى تنشأ عن قيام الأجهزة بوظائفها ، وبخاصة الغدد ذات الإفراز الداخلى — ولكن مهما

يكن هذا الأثر (أثر الجسم فى النفس) عميقاً ، فإن من الخطأ اعتباره من الأمور المطلقة التى لا تتخلف ولا تتحمل استثناء ؛ كما أنه لا يصح مطلقاً ، إذا استثنينا الحالات الباتولوجية (أى الحالات المرضية، نسبة إلى المرض)، أن ننظر إليه نظرتنا إلى الأمور التى لا تستطيع وسائل التربية إلى نقضها أو مقاومتها سبيلا .

٣ — إن لنوع السلوك الذى يؤخذ به الفرد أو يأخذ به نفسه فيعتاده أثراً كبيراً فى كل ما يصدر عنه من حركة وعمل . ولكن مهما يكن لهذا العامل من شأن فى استقرار الأعمال الإنسانية ، وتكوين العادات ، وبالجملة فى تشكيل هذه الناحية من الحياة التى تمثل أهم قسم من مظاهر النشاط المتكرر كل يوم ، فإنه ليس كل شىء بهذا الصدد . إذ يوجد بجانبه عامل نفسىّ يتدخل فى كل ما نقدم تدخل توجيه وتشكيل وتنظيم ، وهو ما يطمح إليه الفرد من كمال .

٤ — ترشدنا أحدث البحوث فى الوراثة إلى أن التنبأ بما سيكون عليه انتقال الطباع من الأصول إلى الفروع لا يمكن أن يكون يقينيا (فيما يتعلق بالفصيلة الإنسانية ، اللهم إلا فى بعض ظواهر مرضية « باتولوجية » معروفة) ، وترشدنا كذلك إلى أن امتزاج طبيعتين فى البييضة واللقاح تنجم عنه أشكال وراثية مختلفة : فقد يولد من أبوين متوسطين أولاد مزودون بصفات ممتازة . على حين أن أبوين ممتازين لا ينجبان من يشبههما إلا فى حالات خاصة .

ومن هذا يتبين أن قصارى ما يُنتظر من العلم بهذا الصدد ، ما دام

بحالته الراهنة ، وهو الإرشاد إلى الوسائل التى يتقى بها انتقال بعض الطباع المرضية (الباتولوجية) عن طريق الوراثة .

٥ — لقد ثبت أن لبعض وظائف معينة متصلة بالغدد ذات الإفراز الداخلى أثراً بيّناً فى الطباع ، ولا سيما فى أدوار الانقلاب الجسمى الخاصة بمراحل النمو الإنسانى .

ولذلك ينبغى أن نعنى بملاحظة هذه الوظائف وأن ندرسها دراسة طبية عميقة ، علنا نهتدى إلى الوسائل التى نصلح بها ما ينجم عن عملها من شذوذ وفساد .

٦ — لا يدين الفرد بطباعه للوراثة وحدها ، بل يدين بها كذلك لنشاطه الجسمى والعقلى ؛ ونشاطه هذا تشرف التربية على تنظيمه . ففى وسع التربية إذن أن تصبغ الحياة الإنسانية صبغة معينة وتوجهها وجهة خاصة .

٧ — ليس أثر التربية فى الطباع مقصوراً على الحالات العادية فلا ينبغى أن نقطع الأمل من نجاح التربية حتى فى الحياة « الباتولوجية » (المرضية) وفى أشد الظواهر الوراثية شذوذاً . فالبحوث الحديثة فى تربية المجرمين بطبيعتهم ، والثمرات التى يأبى بها كل يوم تربية الشواذ ومن فى حكمهم ؛ وتحليل العوامل التى تؤثر فى درجة القابلية للتربية والتى كشف عنها علم النفس الحديث ، كل أولئك يبيّن كيف يتاح للتربية ، حتى فى أشد الحالات استعصاء على المعالجة أن تعدّل العيوب الوراثية سويّها وغير سويّها إلى حد ما على الأقل . وإن النتائج التى وصلنا إليها بفضل الأعمال اليدوية

التى يقوم بها « دون العاديين » فى مدارسهم ، وبفضل ما يزاوله المجرمون فى إصلاحياتهم من فنون جميلة ، لترشدنا ، فى أوضح صورة ، إلى ما يمكن عمله وما يجب القيام به فى هذه السبيل .

٨ — إن فيما وصلت إليه معارفنا الطبية والنفسية بصدد الوراثة على الأخص لدليلا على أن ما كان يبدو من تشاؤم وعدم ثقة بالتربية لم يعد الآن يعتمد على أساس . فمن حيث إنه قد تقرر أن الطباع ، فى معظم مظاهرها ، ليست ثابتة ولا جامدة ، يجب أن يمحى كل أثر لهذه التشاؤم وأن نستبدل به تفاؤلا وثقة بالتربية .

واجبنا نحو الوراثة :

وإذا كانت الوراثة هى المنبع الأول الذى منه تنبع الأخلاق فما واجبنا نحوها لنستفيد من خيرها ، ونتقى شرها ؟

على الحكومة — وهى الوكيلة عن الأمة — وعلى المربين ، وعلى الأفراد ، عليهم جميعاً واجبات لا بد أن يقوموا بها لحماية النشء من شرور الوراثة .

فعلى الحكومة أن تتدخل لحماية النشء بكل الوسائل الممكنة بأن تشجع الأصحاء — جسما وعقلا وخلقاً — على الزواج ، تشجعهم بكل ما تستطيع من تشجيع لينسلوا للأمة نسلا قوياً .

ومظاهر هذا التشجيع كثيرة :

منها أن تعطى مكافآت مادية للأسرة التى يزيد عدد أفرادها على قدر معين ، وأن تعفيها من الضرائب ، وأن تفرض ضريبة على كل شخص بلغ سناً معينة ، وهو قادر على الزواج ولم يتزوج .

وعليها كذلك أن تحظر الزواج أو الإنسال فى كل سن تدل قوانين الوراثة على أن التناسل فيها لاينتج إلا ذرية ضعيفة .

ومن الوسائل ألا يمكن من الإنتاج من يكون مصابا بأمراض جسمية ، أو عقلية قابلة للانتقال إلى الفروع عن طريق الوراثة

وقد اختلف الباحثون أمام هذه الوسيلة ، فنهم من يقول : يمنعون من الزواج أصلا .

ومنهم من يقول : يباح زواجهم ، ويمنعون من الإنسال بأن يعقموا حتى لا ينتجوا ، وقد أخذت ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ بهذا الرأى الأخير فعقمت غير الصالحين للانتاج السليم لما بهم من عيوب جسمية ، أو عقلية (١) .

فهم إن الأصل عدم تقييد الحرية الشخصية فى الحياة التناسلية — إلا بالقيود التى يفرضها الدين — لكن : ماذا نصنع أمام الأمراض المعدية ، والتى تنتقل إلى النسل بطريق الوراثة ؟

إن الزواج مع بعض الأمراض يؤذى المجتمع ، ويؤذى الخلف الناتج منهما ، وهنا يجب أن يتدخل القانون .

يقول « الدكتور أوجست فوريل » — عن الأمراض الزهرية — « كل رجل وامرأة يعلم أنه مصاب بأحد الأمراض الزهرية فى حال معدية . ثم يتصل بعد ذلك بشخص آخر يجب أن يُعَد مجرماً يستحق العقاب خصوصاً إذا كان هذا الشخص الآخر سليما من الإصابة بهذا المرض . وهنا يجب أن يتدخل القانون لتعويض الشخص الذى يصاب بالعدوى . بل يجب أن يعد هذا العمل جريمة ينال مرتكبها نصيبه من العقاب الجنائى ، وعلى المصاب أن يقوم برفع الدعوى — ولو أنه نادراً ما يفعل ذلك خشية الفضيحة — على أننا نأمل أن يحمل المستقبل لنا خيراً كثيراً ،

---

(١) المصدر السابق .

ونرجو أن يرقى القانون لمصلحة الإنسانية ، وبذلك نكون قد خطونا خطوة هامة نحو مكافحة هـــذه الأمراض ومنع أذاها عن الأفراد والأسرة والمجتمع (١) .

ولا أدرى إذا كان تقدم الطب الآن أصبح يقضى على مثل هذا « الرأى » أولا ؟

يقولون : إن بعض الحقن ظهرت تقضى على مرض الزهرى فى أيام معدودات ولا أدرى إذا كانت تقضى عليه فى أدواره جميعها أم تقضى عليه إذا كان لا يزال فى دوره الأول .

أما الأمراض النفسية التى لا تؤذى المجتمع من الزواج بقدر ما تؤذى لخلف الناتج منهما فيجب أن يتجه التحريم القانونى إلى الانسال فقط .

والشريعة الإسلامية التى تدعو إلى الإكثار من النسل بقوله صلوات الله عليه : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

تعطى الزوج حق طلب فسخ العقد لأمور : منها « الجنون » و « الجذام » و « البرص » ، وتطلب من غير « المستطيع » أن يكف عن الزواج بقوله : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصيام » فهل لنا أن نتوسع فى مدلول « الاستطاعة » حتى نجعلها تشمل الأمور « المعنوية » بجوار « المادية » ؟ . على أنه إن صح ما يروى عن رسول الله صلوات الله عليه : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » و « إياكم وخضراء الدمن » — خضراء الدمن هى المرأة الحسناء فى المنبت السوء — إن صح هذا أغنانا

---

(١) ج ٢ ص ١٠٤ « المسألة الجنسية » .

فى تقييد الحرية الشخصية فى الحياة التناسلية » .

بناء على كل ذلك فللمجتمع الحق فى أن يحد من حرية الأفراد فى باب الزواج والعلاقات التناسلية ما داموا يسببون الأذى للناس .

وبهذه المناسبة أطلب بجوار ذلك لتحسين النسل عن طريق الوراثة أطلب تنظيم تعدد « الزوجات » وتنظيم « الطلاق » على معنى أنه لا يقع الطلاق إلا أمام القاضى ، ولا يباح التعدد إلا « للضرورة » فأن ما نحن فيه الآن من فوضى الزواج ، والطلاق، هذه الفوضى ، تأتى لنا بصفات « سافله » تنتقل على توالى الأجيال من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة هذه الوراثة التى تحول العادات على التمادى إلى غرائز .

وعلى الحكومة أيضاً — وهى الوكيلة كما قلنا عن الأمة — عليها أن تثقف الشعب ، وتوسع مداركه ، وتنير ذهنه فى مسائل الوراثة بكل الوسائل الممكنة حتى يستفيد مما تأتى به من خير ، ويتقى ما تأتى به من شر ، وإلى أن يمتنع الشعب بضمير أفراده عن هذه الشرور يجب أن يتدخل القانون .

على أن الفرد لا يُغتفر له أبدا تقصير فى هذه الناحية . بل عليه أن يشعر بأنه مسئول عن خير نسله ، وخير أمته ، وكل ما يتطلب منه الأمر أن ينزل عن شىء من رغباته التافهة فى سبيل صلاح مجتمعه .

كم من الناس بيننا الآن من هو فى شقاء حسى ، أو معنوى ، وليس من سبب لذلك إلا أن أصله قد اشترى لذته بآلام ذريته .

اذهب إلى مصحة « المصدورين » أو إلى « مستشفى الأمراض الزهرية »

أو إلى مستشفى « الأمراض العقلية » تر كثيراً منهم يرعى فيه المرض بسبب آبائهم ، ولو قد كانوا على شيء من « الحذر » و « التقوى » ما أوقعوا هؤلاء المصابين فى هذا الشقاء الأليم ، ولعلى أصل إلى قلب القارىء الكريم فيعمل من جهته على أن يضع لبنة فى صرح تحسين النسل عن طريق « الوراثة » بالإرشاد ، والتحذير .

والأفضل فى هذا الباب أن تتزوج من غير أقاربك حتى لا تأتى بنسل ضعيف ، ولذلك يقول صلوات الله عليه : « اغتربوا لا تُضووا » أى لا تأتوا بالأولاد ضعفاء . ويقول الشاعر العربى :

تنجبتها للنسل وهى غريبة فجاءت به كالبدر خرقا معمما

وذلك لأن الزوجين إذا كانا من أسرتين مختلفتين تعادل ما ينتقل عنهما إلى أولادهما بطريق الوراثة . أى تتنوع صفاتهما الوراثية ، بحيث تقابل ناحية ضعيفة ناحية قوية فيخف الأمر .

وعلى رجال التربية أن يُوجِّهوا من عهد إليهم أمر تربيتهم فيشجعوا ما يكون منها صالحاً ، ويستأصلوا ما يكون ضعيفا . وإذا تضافرت الحكومة ، والأفراد ، والمربون ، فى هذه الناحية على ضوء ما تقدم أمكن أن نأخذ بالوراثة جيلا جديداً قوياً .